كلمة المدير

حضرة البروفسّور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت،

حضرة البروفسورة ميرنا غنّاجة، عميدة كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة،

عائلة الدكتور الراحل الدكتور أفرام البعلبكيّ،

أيّها الحضور الكريم،

نتحلّق اليوم لنحتفي بالذكرى الأولى لميلاد الدكتور البعلبكيّ، الغائب عنّا بجسده، الحاضر دومًا بفكره. كان معلّمًا لم يشأ أن نتذكّره إلّا برأس مرفوعٍ وفكر متأمّل ورؤًى من نسيج الحياة العظيمة، ونفس منعتقةٍ من كلّ قيد.

ومن دفق المجّانيّة التي لطالما عبّر عنها مردّدًا: "أخذتم مجّانًا فمجّانًا أعطوا"، نهلت عائلته، لتبقى أمينة ووفيّة لوصيّة كبيرها، فشاءت أن تتشارك مع جميع أحبّائه هديّة المعلّم، ولتكون من بعده معين دعم لكلّ طالب علم في معهد الآداب الشرقيّة، المعهد الذي أحبّ، والذي علّم فيه ونشّأ وكوّن ورافق. ويشهد على ذلك كلّ طلبته.

نجتمع اليوم لنحتفل بإصدار كتاب "الحقيبة" الذي هو ثمرة تعاون بين معهد الآداب الشرقيّة في جامعة القدّيس يوسف في بيروت وعائلة الراحل الدكتور أفرام البعلبكيّ. هدية د. بعلبكي لنا في ذكرى ميلاده، حقيبة ليست كالحقائب، سيقرؤها كلّ على طريقته.

في آخر مرّة حدّثتكم فيها عن المعلّم، منذ أقلّ من سنة، كنت لا أزال في صومعته، أُلملم آخر قصاصات كتب عليها: "يا أبنائي، لقد ورّثتكم الحلم بأن تكونوا عظماء..."

ولما هممت بالرحيل، وجدت على باب تلك الصومعة، "حقيبةً" جلديّة منتفخة، كان يحملها المعلّم أينما ذهب. حينها أيقنت أنّه غاب... ألم يكتب هو ذات يوم: "هكذا تفتح الباب وتتسلّل منه إلى خارج الزمن كأنّك، كعادتك، لا تريد أن تزعج أحدًا حولك ولا تستأذن لتنجز ما ترى أنّ عليك إنجازه".

لماذا ترك حقيبته؟ وما عساها تكون؟ وماذا يمكن أن تحوي؟

تنفتح "الحقيبة" عن تعدّد المعنى، لأنّها أكثر الموجودات حضورًا في حياة الإنسان منذ طفولته وحتّى الكبر. وتتّسع لتشمل تخيّلات كثيرة مستولدة عن حياة الإنسان وتفاصيلها. فالحقيبة مقترنة بالسفر والترحال: هي غياب وحضور، وبحضورها قسوة عالية وصادمة بكشوفها الغرائبيّة.

منذ اليوم الذي حصلت فيه على "الحقيبة" وأنا أشاطرها في كلّ يوم ساعة من زمن، أقلّبها وأفتّش في جيوبها وألاحظ ما تخبّئه من معرفة موسوعيّة، ومن مفاجآت منتظرة.

حقيبة البعلبكيّ شديدة الدلالة على حنوّ صاحبها، ودفئه الاجتماعي وارتباطاته الحميمة، المحبّ المثقل بالبراهين على وفائه، ربّ الأسرة المحترف، صانع الفرح والمباهج العائلية.

في كلّ مرّة أحمل كتاب "الحقيبة"، أجد نفسي سارحًا في علامات "العنوان"، واقفًا أمام عتباته أحاول اقتناص المدلولات وربطَها بالمرجع الملائم. ماذا عساه يحمل إلينا من الدكتور البعلبكيّ؟ فالحقيبة واحدة من تلك الملحقات التي يضيفها الإنسان، إلى ذاته، والتي تعبّر عنه في أحيان مخصوصة، هي الأحيان التي يتحوّل فيها عن زمانه ومكانه.

فالحقيبة رفيقة المسافر في جولاته، يحتفظ فيها بما سكن فكره ووجدانه. لذا ترى الدكتور البعلبكيّ يجوب عوالم الفكر، مستبقيًا قراءاته فيها: فمن قراءة في الفكر العربي، إلى قراءة في الفكر اليونانيّ، ومباحثه، إلى قراءة في الفكر النهضويّ في العالم العربيّ، وصولًا إلى الفلسفة اللبنانيّة النشأة... الحقيبة هي مكان تخزين الذكريات والتجارب، ترمز إلى التجربة التي اكتسبها الكاتب من خلال قراءاته، وإلى تنوّع الفكر وتعدّد وجهات النظر.

الحقيبة هي مكان يحمل فيه الناس أشياءهم الثمينة، بما في ذلك المعرفة. في هذا السياق، يرمز عنوان الكتاب إلى بحث الكاتب عن المعرفة والحكمة. في هذه الحقيبة يحمل الناس أشياء جديدة، هي مجموعة القراءات المبتكرة التي يقدّمها الكاتب.

حقيبة الدكتور البعلبكيّ حيّز مكانيّ من نمط خاصّ، مسكون بخلاصة قراءات، أبى أن تكون كسائر القراءات؛ فقد أراد لقراءته أن تكون مشّككة في ما يسمّونه الدّراسات أو الأبحاث العلميّة، ذاك لأنّ الموضوعيّة هي من أهمّ شروط العلم...

لقد أراد أن يكمل المسيرة النقديّة التي رسمها له ولطلّابه، مسيرة البحث وطرح الفرضيّات وتقصّي الحقائق وتقبّل الخيبات ونشر الجديد المثبت ليكون شعلةً لمسيرةٍ نقديّة أخرى.

أراد من حقيبته أن تكون مرشدًا وهاديًا لكلّ من يروم أن يسلك في طريق البحث عن الحقيقة، أيًّا كان مجالها. "تلك جدليّةُ علاقةِ النّاقد بالنّصّ. أن تقرأه في حيثه وحيثِ صاحبه، من دون أن تتنزّل عن شخصيّتك وثقافتك وفكرك في حيثِك أنت. وهذا مفيدٌ من طرف، فلا تبتلع كلّ ما يُكبّ عليك من دراسات، يُقال إنّها علميّة، ومحرجٌ من طرف آخر، لأنّك لن تصدّق شيئًا، وعليك أن تبحث بنفسك عن كلّ شيء".

فالباحث مهما حاول أن يكون موضوعيًّا لا يمكنه الخروج من ذاته، وثقافته، وطريقة رؤيته إلى ما يقوله الفلاسفة، والمفكرون في زمانه، وما قالوه قبله؛ فضلًا عن ادّعائك الإحاطة بفكرهم وأنت لم تطّلع إلّا على جُزيء ممّا كتبوه وتباحثوا به سنوات من عمرهم طال أم قصر.

لماذا الحقيبة؟ لأنّه المعلّم؛ لم يمرّ بعد الوقت لينسى من استنار بلمعه ما كان يحمله من معارف ومهارات، وما كان ينماز به الدكتور البعلبكيّ من روح المسؤولية (هو الملتزم بعمل طلّابه ونجاحهم)، من سعي وطموح (إلى العلم والمعرفة، والاستزادة منهما)، من تحدٍّ (فالحقيبة رمز القدرة على التغلّب على الصعوبات).

في الحقيبة درسٌ في الشكّ. فكيف ندّعي الإحاطة بفكرٍ لم يُعطَ لنا إلّا جُزيء ممّا كتب فيه؟

كيف لنا أن نثق بما يردِ في أمّهات المصادر؟ وهذا يُغضب الّذين أخذوا كلّ معارفهم منها، ولم أقل أخذوا علمهم منها، إذ ليس فيها علمٌ وهم يتوهّمون.

يقدّم لنا الدكتور البعلبكيّ درسًا في الأمانة والانسجام الفكريّ. يقول: "غير أنّي لم أخن عقلي فلم أترك مناسبة إلّا وجرّحتُ تلك المصادر، ووجّهت تلاميذي وطلّابي إلى نقدها، والشّكّ في صحّة ما يرد فيها من مزاعم وثرثرة وادّعاء. وهمّ الأهل والمدارس كان أن ينجح التّلاميذ والطلّاب في امتحاناتهم، وهمّي كان أن أساعد في تكوين عقولٍ ناقدة متحرّرة، في العلم، من أيّ سلطة دينيّة أو مدنيّة أو أدبيّة، ومن سلطة الأموات تحديدًا".

ولا يتوانى صاحب الحقيبة عن الإشارة إلى "الكارثة في اقتباسات أصحاب الدّراسات المشتهرة، إذ إنّهم يقتطعون في اقتباسهم كلامًا من كلامٍ، ويأتيك المقتَبَسُ خارج قرائنه، وخارج السّياق، حتّى أنّهم يبترون الآيات من كتبهم المقدّسة لتكون على نسق ما يدّعون، ثمّ يوثّقون، ولا تجد المعنى إيّاه في المرجع الّذي يُشار إليه، وعليك أن تقبل بأنّ ما يُقال علمٌ ؟!"

ويعجب أيضًا لمن يعزّز سلطته بالاتّكاء على آراء يحسبها منزلةً، لا تُردُّ حقيقتها.

في الحقيبة دروسٌ في الحذر من العقيديّة المتستّرة بوشاح العلم، السافرة عن جهلنا. هو لا ينقل إلينا علمًا... هو لا ينقل إلّا وجهة نظر، كانت الأرجحَ بين مجموعةِ احتمالاتٍ كثيرة.

هذه القناعة نابعةٌ من وثوبيّة فكر د. بعلبكيّ الداعي إلى الاستمرار في البحث، وهو واثقٌ من أنّه لن يحصل على كلّ الحقيقة الّتي يسعى إليها، ولن يحيط بفكر من يقرأ لهم، كلّه، وعلى حقيقته.

العلميّة التي ينادي بها المعلّم تعني التزام الصّدق والوضوح في ما يراه الباحث وليس أكثر.

وتشـــهد هذه الحقيبة، أيضًـــا، على تحوّل فكريّ في رحلة الدكتور البعلبكيّ الفكريّة. "هكذا قيل لي، وكنت وما زلت أكنّ احترامًا شديدًا لعدد كثير من أساتذتي، وقد نقلت إلى طلّابي هذا الّذي تعلّمتُه كلّه، وطبّقته معهم ولكنّني هنا في هذه الحقيبة، لم أطبّق كلّ ما تعلّمتُه، ولا كلّ ما علّمتُه، ذاك لأنّي أوّلاً أُقرأ لنفسـي، ولولا إلحاح زوجي وأولادي وبعض الأصدقاء لما نشرته...".

تكشـف الحقيبة عن قوالب الدكتور البعلبكيّ النقديّة المحدّدة والمحكّمة والثابتة التي كانت شـخصيّته، ومعارفه، وعلومه، وثقافته. "وإنّي عقلٌ ذئبٌ يصـعب ترويضـه. كلّهم كانوا يكتبون كما يشـاؤون من دون أن يفكّروا في كيف سـأحكمُ عليهم وبما ستكون قوالبي. ولا أتصوّر أنّهم تخيّلوا أنّي، وأمثالي، سنولد".

المفيد يبقى والباقي يتحوّل، والمتخلّفُ وحدَه يقدّس التّقاليد ويعبدها.

إذن، لن تجد علمًا ولا نبوّة ولا تنزيلًا، في ما تضمّنته هذه الصّفحات.

سأقرأ في الفكر وعنه، ولكنّني أنا من سيقرأ. وعلى طريقتي... وسيشكّك كثيرون وسيعترض كثيرون، وعندما سأمرّ بجانب الأساطير المقدّسة لديهم وأسخر بها سينتفضون. ولكنّي لن أكون حاضرًا. أعدكم بأنّي سأحترم الجميع، الأقدمين من كبار المفكّرين، والقدماء منهم، والأقرب إلينا حتّى الأقربين، ولا أعدكم بأن أحترم آراءهم كلَّها مهما عظم شأنهم وكبرت دهشتكم بهم.

سأحضر المهرجان، لن أشوّش عليكم، ولكنّي لن أرقص فيه.

هذه حقيبتي أحملها وأنا راجع من إحدى وثمانين سنة، وفيها بعضٌ ممّا جمعته من آراء غيري وهو كثير، وبعضٌ ممّا خبرتُه، وبعضٌ ممّا رأيته؛ إنّها حقيبة لا صندوق مجوهرات، والمهمّ الأهمّ هو أنّي لم أجهد نفسي لأقنعك، فلا تكلّف نفسك عناء تصديقي.

في حقيبته، لم يُلزِم أو يترك خارطةً مقدّسةً، بل وصّى بالسير قدمًا للبحث عن الحقائق، وجمع المعارف والعلوم، بجهد، وعقلٍ غير مُدجّنٍ، فنمتلكُ نحن أيضًا عقل ذئبٍ، لا طوق في عُنُقِنا، لا نسترحمُ أحدًا، لا نحتقرُ أحدًا، ولا نقف على باب أحد، ولا نصنَّف في قطيع أحد...

من يقرأ "الحقيبة"، كمن يدخل صومعة المعلّم، ويلتقط لُمعَ فكره.

فلا تتردّدوا في حملها، هي آخرُ ما كتبه المعلّم...

د. طوني القهوجي

مدير معهد الآداب الشرقيّة